

المقدمة

obekanda.com

أقوم فى هذا الكتاب بدراسة شخصية المضحك عند العرب، من خلال تعريف هذه الشخصية، وذكر دورها فى حياة الناس، وأثرها على الأدب بوجه خاص.

وقد تتبعت هذه الشخصية عند العرب منذ العصر الجاهلى حتى نهاية حكم المتوكل، ذاكراً أنواع هذه الشخصية ما بين مضحك الخليفة ومضحك العامة، وذكرت أنواعاً أخرى من المضحكين مثل المتحامقين والحمقى والمخنثين.

وقد ترجمت فى الهوامش لهؤلاء المضحكين، وذكرت وسائلهم فى الإضحاك، مستشهداً خلال ذلك بنواديرهم وحكاياتهم الطريفة. وأظن أن هذه الدراسة - بهذا الشكل - جديدة غير مسبوقة، وهذا لا يمنع من أنه قد سبقتنى دراسات عديدة تدرس الفكاهة فى التراث العربى وأنواع الفنون الفكاهية فى ذلك التراث.

وبالطبع قد أفدت من كل هذه الدراسات، ولكنها - مع ذلك - بعيدة - إلى حد كبير - عن الموضوع الذى أدرسه هنا، وهو شخصية المضحك عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل، "دراسة فنية" وقد جاء هذا الكتاب فى تمهيد وثلاثة فصول.

أما التمهيد فقد عرفت فيه شخصية المضحك، وذكرت أثرها على حياة الناس قديماً، وأثرها بوجه خاص على الأدب شعره ونثره.

وكان الفصل الأول حول تتبُّع ظاهرة المضحك تاريخياً عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل. وتحدثت في الفصل الثاني عن أنواع المضحكين، ثم كان الفصل الثالث عن صفات المضحك ووسائله في الإضحاك.

وبعد ذلك ذكرت الخاتمة التي فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

وختمت الكتاب بذكر المصادر والمراجع التي استعنت بها في هذه الدراسة.

وأرجو أن أكون موفقاً في هذا الكتاب، وأن ينال قبول القراء.



obekanda.com

أسباب اختيار الموضوع

أظن أن شخصية المضحك موجودة فى كل عصر وفى كل بيئة، ولكنها تتلون بثقافة البيئة التى تعيش فيها، وتستخدم وسائل الإضحاك الملائمة لها. ولا يوجد بشر لا يحتاجون لأولئك الأشخاص الذين يمتلكون مواهب فى إضحاك غيرهم، ومن ثم كان وجود هؤلاء المضحكين ضرورياً من أجل إمتاع الناس والتخفيف عن آلامهم بفكاهاتهم.

وقد وجدت شخصية المضحك بأنواعها المختلفة كمضحك الخليفة ومضحك عامة الناس والمضحك المخنث والمضحك الأحمق والمضحك المتحامق وغير ذلك عند العرب، ولعل العرب قد عرفوا أنواعاً قليلة من شخصية المضحك فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام، ولكنهم عرفوا أنواع المضحك المختلفة فى العصر الأموى، والعصر العباسى - على وجه الخصوص - لتأثرهم بالأمم الأجنبية، لا سيما الفرس، الذين عرفوا هذه الشخصية؛ لأنها تتواجد بكثرة - قديماً - فى البيئات المتحضرة، فهو شخص مطلوب لدى خاصة الناس وعامتهم فى الوقت نفسه، لما يقوم به من إمتاع وتسلية لهم.

ولم أقع على دراسة تتبعت هذه الشخصية^(١) منذ العصر الجاهلى حتى العصر العباسى الذى نضجت فيه هذه الشخصية وكثرت أنواعها، وتعددت وسائلها فى إضحاك الناس.

(١) ولعل أقرب الدراسات لدراستى هى دراسة جمال محمد سرحان وعنوانها: "المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجرى". وهى رسالة مقدمة إلى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت لنيل درجة أستاذ فى الآداب، سنة ١٩٧٨م.

ولهذا قمت بهذه الدراسة متتبعاً فيها - بشكل خاص - ظاهرة المضحك عند العرب منذ العصر الجاهلى حتى نهاية حكم المتوكل.

واكتفيت بالدراسة لهذه الشخصية حتى نهاية حكم المتوكل؛ لأنه مع نهاية حكم المتوكل ينتهى عصر الخلفاء الأقوياء فى الدولة العباسية وعصر نفوذ الفرس، ويبدأ بعده عصور من الضعف للدولة العباسية، وسيادة للأتراك وغيرهم على الدولة العباسية.

وكانت شخصية المضحك بارزة فى عصر قوة الخلفاء العباسيين، ولكنها اضمحلت - إلى حد كبير - مع ضعف الدولة العباسية؛ ولعل ازدهارها مع قوة الدولة العباسية يعود لتقريب كثير من الخلفاء العباسيين لهؤلاء المضحكين - أو لبعضهم - وإجازتهم على فكاهاتهم، لا سيما الرشيد والمتوكل.

وأقوم فى هذه الدراسة بتتبع أنواع المضحكين ووسائلهم فى إضحاك الناس، ومقارنة هذه الوسائل بوسائل الكوميديا المعروفة الآن فى عصرنا.

=ويحمد لهذه الدراسة أنها من الدراسات المبكرة التى تناولت شخصية المسامر وأثرها فى الأدب، ومع ذلك فلم يتحدث الباحث عن شخصية المضحك إلا فى مساحات قليلة من دراسته وركز الحديث عن مسامر الخلفاء من المحدثين والوعاظ والمنادمين ممن يشاركون الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة شرب النبيذ وغيره من المشروبات. ولعل الفصل الثالث من كتابه فيه مساحة أكبر نوعاً ما عن دور المسامر الترفيهى، ومع ذلك لم يتحدث الباحث عن هذا المسامر الترفيهى - أى المضحك - إلا فى صفحات قليلة وبإشارات سريعة، ولم يدرس ما أدرسه هنا فى هذه الدراسة من أنواع هؤلاء المضحكين، ووسائلهم المختلفة فى إضحاك الناس، وأثرهم على المجتمع الذى عاشوا فيه، ثم أثرهم الكبير على الأدب شعره ونثره. ومن ثم تعدُّ هذه الدراسة رائدة فى مجالها، ولكنها لم تتحدث عن المضحك إلا بإشارات مختصرة، ولم توضح دوره بشكل كافٍ كما أحاول فعله فى دراستى هنا.

كذلك أشرت إشارات كثيرة فى هذه الدراسة لأثر هؤلاء المضحكين على حياة الناس فى نقد سلوكياتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وكذلك تحدثت عن أثر هؤلاء المضحكين على الأدب شعره ونثره، وما قدموه من تجديد فى أشكال الأدب وموضوعاته.

منهج الدراسة

استخدمت فى هذه الدراسة المنهج الفنى الذى يهتم بتحليل النصوص واستخراج الجماليات المتعددة التى بها، وفى الوقت نفسه يستفيد من منجزات المناهج الأخرى كالمناهج التاريخية والمنهج النفسى.

تعريف المضحك

المضحك هو الذى يقوم بإضحاك الناس وتسليتهم وإمتاعهم بأقواله وأفعاله، وباستخدام تكوينه الجسمانى لا سيما ملامح وجهه.

وهو بالأساس شخص موهوب فى إضحاك الناس؛ ولكنه لى يتقن موهبته فى إضحاك الناس ينمى موهبته تلك بالتعرف على أخبار المضحكين السابقين وحكاياتهم المضحكة، ويدرس وسائلهم فى الإضحاك، وينظر إلى الذى يتناسب منها مع موهبته فى الإضحاك، وقدرته فى تسلية الناس.

ولا أدعى أن كل المضحكين فعلوا هذا، بل بعضهم فعله، والبعض الآخر اتكأ بشكل قوى على موهبته فى إضحاك الناس، وما فيها من جوانب تفردته عن غيره من المضحكين.

ولا يستخدم كل المضحكين وسائل متشابهة لإضحاك الناس، فأكثرهم يستخدمون وسائل متشابهة، وينفرد بعضهم بأساليب تخصهم في إضحاك الناس.

والمضحكون بطبيعتهم يتصفون بالظرف والقدرة العالية على الإضحاك، والتمكن من التمثيل، وتقديم التعليق الساخر في حينه، ومع ذلك فلم تكن الجرأة صفة مشتركة بينهم جميعاً، بل منهم من اتصف بالجرأة الشديدة كأبي دلامة^(١) وأبي العيناء^(٢)، ومنهم من استخدم المداراة، ومنهم من كان يفضل عدم التصريح بآراءه يمكن أن تسبب له بعض المتاعب.

(١) أبو دلامة: هو زُئد بن الجَوْن كان مولى لبنى أسد، وهو أسود البشرة، من الكوفة، وتاريخ ميلاده مجهول، ولكن بالنظر لبعض أخباره يظن أنه قد ولد في أواخر القرن الهجري الأول، وقد أدرك بنى أمية، ولم يكن له في أيامهم نباهة، ونبغ في أيام العباسيين، وانقطع للخلفاء العباسيين الأوائل السفاح والمنصور والمهدى، وكان مضحكاً لهم، يؤنسهم بنوادره وشعره الفكاهة، وكانت وفاته سنة ١٦١هـ. انظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار صادر، ٣٢٠/٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، أشرف على تحقيق الجزء الثامن: على أبو زيد. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ٣٤٧/٨، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٢٤٩/١، وياقوت الحموي: معجم الأدباء "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ١٣٢٧/٣.

(٢) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي، بالولاء، وهو أديب فصيح، من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جواباً، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكياً جداً، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان في سب الناس والتعريض بهم، ومنشأه ووفاته في البصرة، وقد ولد تقريباً سنة ١٩١هـ، وكانت وفاته سنة ٢٨٣هـ. انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، أيار، مايو، ٢٠٠٢م، ٣٣٤/٦.

ومن المضحكين من كان يستخدم التشوه الذى فيه أو العيب الخلقى الذى به وسيلة للإضحاك كأبى دلامة، ومنهم من كان يحب أن يكون موقراً، لا يناله أحد بالذم فى عيبه أو عاهته كأبى العيناء.

وهكذا كان لبعض المضحكين صفات ووسائل فى الإضحاك تفردوا بها عن غيرهم من المضحكين.

أثر شخصية المضحك فى حياة الناس

كان للمضحك فى العصور القديمة - لا سيما فى العصرين الأموى والعباسى - دور مهم جداً، فهو بديل لوسائل الترفيه التى نعرفها اليوم كالمسرح والتلفاز، وكان يقوم بتسلية الناس وإمتاعهم، بل لعله - بفكاهاته ونقده السياسى والاجتماعى بما فيه من جرأة - كان ينفس عن الناس ويخفف من إحساسهم بوطأة المتاعب الاقتصادية والاجتماعية التى عاشوها وقتذاك.

وكان له دور فى إنعاش نفوس الناس، والمحافظة على صحتهم النفسية^(١) وتخفيف آلامهم الجسمية والنفسية، والقفز فوق متاعبهم فى حياتهم اليومية^(٢)، ولو لساعات أو لدقائق.

(١) يقول الدكتور زكريا إبراهيم: إن الفكاهة تدفع عنا الألم، وهى أداة فعالة للمحافظة على صحتنا النفسية انظر: د. زكريا إبراهيم: مقال بعنوان لماذا نضحك؟ نشر بمجلة الهلال، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، أغسطس ١٩٦٦م، ص١١، ويقول الدكتور محمد عنانى: إن الإنسان عن طريق الضحك والبكاء يفرغ ما عنده من شحنة توتر. انظر: د. محمد عنانى: فن الكوميديا. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٤٨.

(٢) يقول الدكتور زكريا إبراهيم: وتبحث النفس فى الفكاهة عن منفذ للتفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيراً ما يتقل كاهلها.

وللمضحك دوره فى زجر الناس عن بعض عيوبهم الاجتماعية والأخلاقية، بسخريته منها^(١).

أثر شخصية المضحك على الأدب

لا شك أن ظهور شخصية المضحك - بالشكل الذى نراه فى العصرين الأموى والعباسى - كان له أثر كبير على الأدب شعراً ونثراً. فأثره على الشعر كان من خلال ظهور الشعر الفكاهى بما فيه من سخرية، ورسم كاريكاتيرى، ونظن أن أبا دلامة هو الذى حمل لواء الشعر الفكاهى فى العصر العباسى الأول، وهو الذى حول الهجاء من مجرد سب وشتم وهتك للأعراض إلى صور ساخرة ورسم كاريكاتيرى ضاحك ينال من خلاله من شخصية من ينتقده ويوجه إليه سهام سخريته.

ولم يكن غريباً أن يكون تطوير فن الهجاء إلى فن الكاريكاتير على يد أحد المضحكين الشعراء - ألا وهو أبو دلامة - فهو أعلم بوسائل الإضحاك من غيره من الشعراء، ويمكنه بقدراته الإضحائية العالية -

=انظر: د. زكريا إبراهيم: سيكلوجية الفكاهة والضحك. القاهرة، مكتبة مصر، د. ت، ص ٩.
(١) يقول برجسون: "فالضحك تأديب قبل كل شيء". انظر: هنرى برجسون: الضحك "البحث فى دلالة الضحك". ترجمة: سامى الدروبي وعبد الله عبد الدايم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ١٢٦، ويقول أيضاً: إن الضحك وسيلة تصحيح قبل كل شيء، ويرد على العيوب بالسخرية منها. انظر: الضحك، ص ١٢٥، ويقول ألارديس نيكول: "الضحك هو فى جوهره عقوبة للمجتمع، تقع على بعض النماذج والطبقات المنحرفة". انظر: ألارديس نيكول: علم المسرحية، ترجمة: درينى خشبة. القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، د. ت، ص ٢٧٣، ويقول د. نبيل راغب: "إذا ضحك الناس وسخروا من شيء، فلا يمكن أن يعودوا إلى إتيانه مرة أخرى". انظر: د. نبيل راغب: فن التأليف الروائى. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، دار مصر للطباعة، ١٩٩٠م، ص ٦٤.

التي أشار إليها القدماء والمحدثون^(١) – أن يفجر الفكاهة في شعره، وأن يغير مسار الهجاء إلى فن جديد على العصر العباسي الأول هو فن الكاريكاتير الشعري^(٢).

ويوضح لنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أهم ملامح الكاريكاتير كما ظهر من بعض الشعراء في القرن الثاني الهجري – لاسيما أبو دلامة – بقوله: "من الواضح أن هذا الهجاء الكاريكاتيري الساخر يعتمد على التصوير لا على اللفظ، وعلى التجسيم والمقارنة لا السب والشتم والمهاترة"^(٣).

(١) ولعل الجاحظ أن يكون أقدم من أشار إلى القدرة العالية على الإضحك التي لدى أبي دلامة والتي تتجلى في شعره الفكاهي. انظر: أبا الفرج الأصفهاني: الأغاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصور عن مطبعة دار الكتب، ٢٣٧/١٠، كما أدرك هذه الصفة فيه بعض معاصريه. انظر: الأغاني، ٢٥٥/١٠، ويقول الدكتور عبده بدوي: إن أبا دلامة "قد أخذ على عاتقه أن يملأ الحياة من حوله بالبهجة، والسخرية والدعابة، وأن يتصل بالطبقة الحاكمة رجالاً ونساءً ليضاحكهم". انظر: د. عبده بدوي: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي. القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص ١٥٩، وانظر أيضاً: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي. ترجمة: د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ط ٥، ١٩٨٣م، ١٨/٢.

(٢) يقول توفيق الحكيم: "وهكذا زاول العرب فن "الكاريكاتور" شعراً ونثراً، حيث لم تتح لهم الظروف أن يزاولوه رسماً ونقشاً. كل شيء خطر على بال عبقريتهم. إنهم ليعوضون دائماً ما يفوتهم في جانب، بالإجادة في جانب آخر". انظر: توفيق الحكيم: فن الأدب. القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعاتها بالجماميز، د. ت، ص ٣٥.

ويفرق توفيق الحكيم بين الهجاء والكاريكاتير بقوله: إن في كل كاريكاتير هجاء وليس في كل هجاء كاريكاتير، ففي الهجاء تنال من خصمك بالحق وبالباطل دون أن تتعمد إضحك الآخرين عليه، أما في الكاريكاتير فتحاول بكل السبل السخرية من خصمك بتضخيم عيوبه الجسمية والسلوكية والنفسية بغرض إضحك الناس عليه. انظر: توفيق الحكيم: فن الأدب، ص ٣٤.

(٣) د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. دار المعرفة الجامعية، د. ت، ص ٤٦١.

وأضاف أبو دلامة للقصيدة العربية إلى جانب فن الكاريكاتير
الحس القصصي، ففي كثير من قصائده ومقطوعاته نجد حساً قصصياً
واضحاً^(١).

أما عن أثر المضحكين على النثر في العصر العباسي - على وجه
الخصوص - فقد كان أثراً كبيراً جداً، ولعل أثرهم على النثر كان أهم
من أثرهم على الشعر.

فقد كان أثرهم على النثر مؤثراً ومتنوعاً، فهم ساعدوا على نمو
النادرة والقصة الفكاهية، وذلك من خلال قيامهم بكثير من الأحداث
التي تتضمنها النوادر والحكايات الفكاهية، ولعل الكثير منهم
كان يروي هذه النوادر والقصص الفكاهية عن نفسه، - بالصدق
أو بالكذب - ويضيف إليها لمحاته الفنية لتصبح نماذج أدبية مثيرة في
ترابطها وإمتاعها وإضحاكها.

وبعض المضحكين كانوا مشهورين بصناعة النادرة وتلقينها
لمضحكين آخرين أو لعامة الناس ليضحكوا منها، فيقال: "كان
أبو حبيب مضحك المهدي يحفظ نوادر مُزبَّد^(٢) ويحكها له فيصله. فقال له

(١) على سبيل المثال انظر: الحصري القيرواني: جمع الجواهر في الملح والنوادر. تحقيق: على محمد
البجاوي. بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص١١٢، وانظر: د. على محمد السيد
خليفة، البنية الدرامية في قصيدة أبي دلامة اللامية في بغلته بحث منشور في المؤتمر العلمي
الدولي الثاني، معالم التلاقى بين علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م. كلية
اللغة العربية بالزقازيق، جامعة القاهرة، ٧١٣/١.

(٢) هو أبو إسحاق مُزبَّد، وقد كانت نشأته في المدينة، ثم بعد ذلك انتقل إلى العراق، وكان معاصراً
للخليفة المهدي كما يفهم من بعض أخباره، وله نوادر وحكايات طريفة كثيرة، وكان يضرب
المثل بظرفه ونوادره. انظر عنه: ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين. بعناية: بسام بن عبد=

مزید: بأبی أنت! أنا أزرع وأنت تحصد"^(١).

ولعل النوادر والحكايات الفكاهية التي تروى عن هؤلاء المضحكين، وتصور مواقفهم وتعرض تعليقاتهم أن تكون هي الأعلى فكاهة - بين النوادر والحكايات الفكاهية -، ليس هذا فقط لإضافتها لمضحكين بارزين، ولكن أيضاً لاشتمالها على عناصر فكاهة عالية، استطاع هؤلاء المضحكون أن ينسجوها بمواهبهم العالية في تلك النوادر والحكايات المضحكة التي تتسبب لهم.

وأيضاً نجد في هذه النوادر والحكايات الفكاهية التي تتسبب لهم إتقاناً عالياً في بنيتها، ولا شك أن هذا يعود لتمكنهم في صنعتهم.

ولا ندعى أن هذا الأمر شائع في كل ما نسب لهم من نوادر وحكايات طريفة، ولكنه هو الغالب عليها بمقارنتها بالنوادر والحكايات الطريفة التي تقال عن أشخاص لم يعرفوا بصناعة إضحاك الناس.

والجاحظ نفسه يعرفنا أن إضافة النادرة لشخص مشهور بالفكاهة يزيد لها ملاحظة وإضحاكاً. بخلاف لو أضيفت النادرة لشخص ثقيل الظل لفقدت الكثير من بريق الفكاهة منها، يقول الجاحظ في ذلك: "ولو أن رجلاً ألق نادرة بأبي الحارث جُمين والهيثم بن مطهر وبمزيد وابن أحمر، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون، ولو وُلد نادرة حارة في نفسها

=الوهاب الجابى. بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٤، ومعجم الأدباء، ٢١١٣/٥، والنويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ٢٤/٤ - ٢٥.

(١) جمع الجواهر، ص٣٧.

مليحة فى معناها ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النوء وإلى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد"^(١).

وبالطبع أضيف لهؤلاء المضحكين الكثير من النوادر والحكايات الطريفة، ومن الصعب أن نوثق ما صح عنهم بما نسب إليهم، ولكننا - مع ذلك - نرى أن وجودهم عمل على إنعاش الأدب الفكاهى بما أبدعوه من شعر ساخر ونوادر وحكايات طريفة، وأيضاً بما نسب إليهم من ذلك.

وأيضاً من آثار المضحكين الواضحة على النثر الأدبى - فى العصر العباسى خاصة - أن نرى نوادر لأدباء كبار - هم مضحكون فى الوقت نفسه - كأبى الحارث جُمَيْن^(٢) وأبى العيناء فيها بلاغة فى التعبير وابتكار فى التصوير، ونعطى أمثلة على ذلك بهذه النماذج القليلة من نوادر لأبى الحارث جَمِين وأبى العيناء نرى فيها ملامح بلاغتهما.

(١) الجاحظ: البخلاء. حقق نصه وعلق عليه: د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ص٧.

(٢) أبو الحارث جَمِين مدنى، ولاؤه لبيت حمزة بن عبد المطلب، ويظهر من بعض أخباره أن أكبر صلته كانت بمحمد بن يحيى البرمكى وعيسى بن جعفر، وكانا يصلانه بالرشيد أحياناً. ونوادره كثيرة جداً، وقد ذكر عدداً منها الجاحظ فى كتاب البخلاء، والحصري القيروانى فى كتاب جمع الجواهر فى الملح والنوادر، وابن قتيبة فى كتاب عيون الأخبار. وكثير من نوادره تتعلق بالطعام، وكان أبو الحارث من أولئك الذين يتجرون بالنادرة فى العراق كأبى دلامة وابن دراج ومن إليهما: يدعوهم السراة إلى مجالسهم، ويحضرهم طعامهم، وربما أجزلوا الجائزة لهم. وقد كانوا يعدونهم أداة من أدوات الترف، ومظهراً من مظاهر السراوة، لا غناء لهم عنه.

انظر: تعليقات الدكتور/ طه الحاجرى فى كتاب البخلاء للجاحظ، ص٢٦١، وانظر أيضاً: البخلاء للجاحظ، ص٧٢، وجمع الجواهر، ٢١٥ - ٢١٦.

قال الرشيد لأبي الحارث جمين: "لم لا تدخل على محمد بن يحيى؟
فقال: أدخلُ والله يا أمير المؤمنين، وأنا أكسى من الكعبة، وأخرج وأنا
أعرى من الحجر الأسود"^(١).

* * *

وقيل لأبي الحارث جمين: كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه؟
قال: أما عيناه فعينا مجنون"^(٢).

أما أبو العيناء - وهو بالأساس أديب قبل أن يكون مضحكاً -
فيظهر فيما ينسب إليه من نوارد وحكايات طريفة سمات بلاغته
وفصاحته، وأيضاً قدرته العالية على السخرية، كما نرى فى قوله
لشخص: "أعطيتى برك تفاريق، وعقوقك جملة"^(٣).

* * *

ودعا أبو العيناء "ضريراً يعيشه فلم يدع شيئاً إلا أكله. فقال له:
يا هذا، دعوتك رحمة فصيرتني رحمة"^(٤). ففى النادرة السابقة يستخدم
أبو العيناء الجنس التام، ويثير من خلاله الفكاهة خاصة أنه يأتى ضمن
النقد الساخر من الشخص الذى ينتقده أبو العيناء فى هذه النادرة.

(١) الأبي: نثر الدر. تحقيق: محمد على قرنة. مراجعة: على محمد البجاوى. الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ١٩٨٢م، ٢٥٠/٣.
(٢) البخلاء للجاحظ، ص ٧٢.
(٣) نثر الدر، ٢١١/٣.
(٤) جمع الجواهر، ص ٢٨٥.

وهذه نادرة أخرى لأبي العيناء نرى فيها بلاغته وقدرته العالية على التصوير والسخرية فى الوقت نفسه.

"ذم أبو العيناء رجلاً فقال: له ضحك كالبكاء، وتودد كالسباب والافتراء، ونوادر كندب الموتى"^(١).

وفى رأى أن نوادر أبى العيناء بما فيها من تعليقات بليغة وساخرة فى الوقت نفسه تحتاج لدراسة منفردة؛ لأنها تظهر جانباً مهماً من شخصية أبى العيناء، ألا وهو شخصية المضحك اللاذع فى نقده للناس فى عصره، الجرئ المجابهة فى تهكمه، وفى الوقت نفسه تظهره البليغ فى تعبيره خلال نقده فى نوادره.

وبالجملة فقد أضاف المضحكون فيما ينسب إليهم من تعليقات فى نوادرهم الكثير للنثر الفنى فى العصر العباسى الأول على وجه الخصوص؛ لأن الكثير منهم كانوا أدباء أو شعراء، فانعكس آثار مواهبهم فى الشعر والنثر على ما نسب إليهم من نوادر فيها أشعارهم أو تعليقاتهم.

وكان من آثار شخصية المضحك على النثر أيضاً أن ظهرت كتب المختارات الأدبية التى تحفل بنوادير هؤلاء المضحكين وحكاياتهم الطريفة، ككتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

(١) أبو حيان التوحيدى: البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط١،

١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ٦/١٤.

وكتبت كتب عن هؤلاء المضحكين - على وجه الخصوص -
وتتبع أخبارهم ونواديرهم وحكاياتهم المضحكة مثل كتاب ابن الجوزي:
أخبار الحمقى والمغفلين، وكتابه: أخبار الظرفاء والمتماجنين، وكتابه:
أخبار الأذكياء.

بل لقد كتبت كتب في عهد المتوكل - من قبل بعض هؤلاء
المضحكين - عن الفكاهة، ويدل على هذا تلك الرواية.

قال أبو العنيس الصيمري^(١): "قلت لأبي العبر ونحن في دار
المتوكل: ويحك إيش يحملك على هذا السخف الذى قد ملأت به الأرض
خطباً وشعراً وأنت أديب ظريف مليح الشعر؟ فقال لى: يا كشيخان، أتريد
أن أكسد أنا وتتفق أنت؟ أنت أيضاً شاعر فهم متكلم، فلم تركت
العلم، وصنعت فى الرقاعة نيفاً وثلاثين كتاباً"^(٢).

ولم تصلنا كتب أبى العنيس الصيمرى فى الفكاهة، ولكننا
يمكن أن نستشف ما جاء فيها من خلال ما ورد عنه من نوادر وأخبار،
كحكاياته مع حماره التى حكاها للمتوكل فأعجب بها إعجاباً شديداً،
وكافأه مكافأة كبيرة عليها^(٣).

(١) أبو العنيس الصيمرى هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمرى، كان نديماً للمتوكل والمعتمد
العباسيين، وكان أديباً ظريفاً، عارفاً بالنجوم، شاعراً هجاءً، وهو من أهل الكوفة، وقبره
فيها، ولى قضاء الصميرة فنسب إليها، وله مناظرة مع البحتري، وهجاه أكثر شعراء زمانه، ومن
كتبه "أحكام النجوم" و"الرد على المنجمين"، و"الرد على المتطبيين" و"كتاب السحاقات
والبغائين". وتوفى سنة ٢٧٥هـ، انظر: الأعلام، ٦/٢٨.

(٢) الأصفهاني: الأغاني. تحقيق: على السباعي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، ٢٣/١٩٨.

(٣) انظر فى هذا: المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

بيروت، المكتبة الإسلامية، د.ت، ٩٢/٤ - ٩٣.

ولعل الجاحظ - وهو أديب يهتم بالفكاهة رواية وتأليفاً وتنظيراً - أن يكون قد دفعه لملء الكثير من كتبه بال نوادر والحكايات الطريفة ما وصل إليه من نوادر هؤلاء المضحكين وحكاياتهم الطريفة.

وكذلك نظن أن دراسات الجاحظ النظرية حول الفكاهة والضحك^(١) - وهى متفرقة فى كتبه - كان من أسبابها ما توافر لدى الجاحظ من النوادر والحكايات الطريفة عن هؤلاء المضحكين فى أفعالهم وأقوالهم.

وبالجملة فقد كان أثر المضحكين على الأدب أثراً كبيراً، فى الشعر والنثر على السواء، وفى التنظير للفكاهة أيضاً^(٢).

(١) جاء حديث الجاحظ عن الفكاهة كعلم أو كمنظية مفرقاً فى كتبه ورسائله، وقد تحدث عن جوانب مختلفة تخص الفكاهة كعلم، ومن ذلك دفاعه عن الفكاهة كأنها قضية كلامية: انظر فى ذلك: البخلاء، ص ٦ - ٧، والحيوان: تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ٣٧/١ - ٣٨.

وتحدث عن أهمية الضحك فى جماعة من الناس، وأن الإنسان لا يكون ضحكه وحده كضحكه مع الجماعة، انظر: البخلاء، ص ١٢٤.

كذلك تحدث عن هدفه من ذكر النوادر فى مؤلفاته. انظر فى هذا: الحيوان، ٥/٣.

وتكلم الجاحظ عن لغة النادرة، وأنه يجب أن تروى باللغة أو باللهجة التى قيلت بها؛ حتى تنثر الفكاهة، انظر فى هذا: الحيوان، ٢٨٢/١. والبيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت، دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ١٤٥/١ - ١٤٦، والبخلاء، ص ٤٠.

وتحدث عن قصور اللغة فى بعض الأحيان عن وصف بعض المواقف الفكاهية، بل يجب - فى رأيه - أن يرى الإنسان هذه المواقف ليدرك كل ما فيها من عناصر فكاهية. انظر فى هذا: البخلاء، ص ٥٨.

وتحدث الجاحظ أيضاً عن أنواع النوادر المضحكة ودرجة الإضحك فيها، انظر فى هذا: البيان والتبيين، ١٤٥/١.

وكذلك تكلم عن ظاهرة إصاق النوادر بالشخصيات المشهورة بالفكاهة والظرف لتزيد استجابة الناس لها، ولتزيد شهرتها فى الناس. انظر فى هذا البخلاء، ص ٨.

(٢) وأظن أن تأثير المضحكين على الأدب شعراً ونثراً يحتاج إلى دراسة منفصلة، لدراسة أبعاد هذا التأثير.